الفتح الاسلامي لبلاد المغرب في ضوء الرؤية الاستشراقية الفرنسية

Islamic conquestof the Maghreb from the perspectiveof theFrench Orientalismvision

عمروش احمدahmed.amrouche

جامعة محمد بوضياف/ المسيلة، **ahmed.amrouche@univ-msila.dz**

تاريخ الاستلام: 2019/12/09 تاريخ القبول: 2020/02/05 تاريخ النشر: 2020/06/28

ملخص :

لقد اعتنى الاستشراق الفرنسي بعديد القضايا على تفرعها و تخصصها و الّتي تخص الشّعوب المستعمرة ومن هذه القضايا الفتح الإسلامي لبلاد المغرب باعتبارها من القضايا الأكثر إثارة عند المؤرخين الفرنسيين الغير متخصصين من القناصلة و العسكريين و الإداريين و المترجمين، والّذين حاولوا إبراز أسباب الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ، و دوافع الفاتحين للغزو من وجهة نظرهم ، و ذلك من أجل تشويه الفتوحات الإسلامية ، واعتبارها حروب من أجل الغنائم والسّبايا، و تأصيل لفكرة بأنّ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط كان من أجل التّوسع واكتشاف مناطق الشّمال الإفريقي ، و الجدير بالذّكر أنه يوجد بعض المؤرخين الفرنسيين المتّخصصين و الأكاديميين الّذين أنصفوا الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والفاتحين الأوائل ، و ذلك بالبحث والتّحري وذكر مآثرهم ومناقبهم ، فرغم افتقار الكتابات الفرنسية إلى الطابع العلمي جراء تحليلاتها السياسية المنسجمة مع الإيديولوجية الاستعمارية، فإنها توفر المادة التاريخية، التي تمكن الباحث من تقديم قراءة جديدة مغايرة، في مجالات عدة اجتماعية، اقتصادية، ثقافية .... و لا زالت نتائج وآثار الفكر الاستشراقي من حيث التأثير في ذهنية الفرد والمجتمع إلى اليوم، وذلك بتأثر الفرد الجزائري ومجتمعه بالثقافة الفرنسية التي غرسها المستعمر طيلة فترة احتلاله للجزائر، و التي ناهزت القرن و ثلث القرن، و من دواعي عناية المستشرقين به تأثيراته الاجتماعية والاقتصادية والثّقافية ، لذا سنعالج من خلال هذا المقال النظرة الاستشراقية الفرنسية لهذه القضية واستغلالها التاريخي من أجل الهيمنة الاستعمارية ، و ما مدى استغلال النص الأصلي العربي في كتابتهم، و العلاقة بين الاستشراق و التبشير و الاستعمار.

الكلمات المفتاحية : الاستشراق الفرنسي - المستشرقون - الفتح الإسلامي - بلاد المغرب – المغرب الأوسط.

المنارة للاستشارات
ww

Abstract:

French Orientalismwaspreoccupiedwithmany issues in its ratification and itsspecialization and belonged to the colonized peoples and one of these issues was the Islamicconquest of the Maghreb countries considered one of the mostfascinatingsubjects for non-specialist French historianssuch as consuls, Military, administrative and translators, and thosewhotried to highlight the causes of the Islamicconquest of the Maghreb countries, and the motivations of the conquerors, fromtheir point of view, in order to distort the Islamicconquests, , and considerthemwars for spoils and captive, and implanted the ideathat the expansion of Islam in the middle Maghrib territorywas for the purpose of the expansion and discovery of North Africa. Weshould note thatthere are French, specialist or academianhistorianswho are honest about the Islamic expansion in the Maghreb, and this by carrying out research and investigations and by citingtheir exploit and titles. Despite the absence of scientificanalysis in French writingsfollowingpoliticalanalysis mixed withcolonialistideologiesnevertheless, itpresents a historicalmaterial, whichallows the researcher to present a new and differentreading in differentdomains; social, economic, cultural ... The influence of orientalistthoughtisstillpresenttoday, and affects the state of mind of the individual and society. This by the affectation of the Algerian individual and his society by the French culture whichwasestablished by colonialismthroughoutits occupation of Algeria during about a century and a third of a century, the interest of the orientalists to take care of it and its social, economic and cultural effects. In whatfollows, wewillanalyzethroughthis article the French orientalist vision of this question and itshistorical exploitation for the exhaustion of colonialistsupremacy, as well as their exploitation of the writings of Arab origin in theirwritings, and the relationshipbetweenOrientalism, proselytism and colonialism.

key words: French Orientalism- Orientalists- Islamic conquest - Maghreb.

المنارة للاستشارات

ww

مقدمة:

لعب المغرب الإسلامي، ولا زال، دورا في تاريخ البشرية بعامة، و العالم الإسلامي بخاصة وحفلتاريخه بالكثير من الأحداث، نظراً لوضع المغربالنسبة للعالم الإسلامي، وهذا ما جعله يموج بمختلف التّيارات المذهبية والسّياسية، ويمكن ذكر أهم الأحداث التي كان لها المغرب الإسلامي مسرحاً هي الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وإذ تعتبر هذهالفترة بداية تحول البنيّة المغربية عامةً امتدت آثارها إلى اليوم وشملت مختلف الجوانب السيّاسية الاقتصادية، الاجتماعية، الثّقافية، و اللّغوية وحتى الدينية نتيجة الفتح الإسلامي.

وهدفنا من هذه الدراسة (الفتح الإسلامي لبلاد المغرب من وجهة نظر المستشرقين الفرنسيين)هو إبراز أهمية هذاالحدث باعتباره حدثا تاريخيا وحركة اجتماعية هامة ببلاد المغرب بالنّظر إلى النتائج والآثار المترتبة عنه،والتي شكل انقلابا جذريا.

لهذا جاء هذا الموضوع؛ بغية التّعرف على تاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وأثره على بلاد المغرب الأوسطخاصة وأن هذا الأثر لم يحظ بالنّصيب الوافر من الاهتمامات فجاء هذا المقال بقصد الكشف عنأثر الفتح الإسلامي، والتي جاءت كنتيجة حتمية لدخولهم بلاد المغرب فانعكس ذلك بالضّرورة على الجانبالسّياسي الاقتصادي و الاجتماعي وخاصة الثقافي و اللّغوي.

ومنهنا يمكن طرح التساؤلات التّالية في محاولة للإجابة عليها في خضم فحوى المقال:

- ما هو مفهوم الاستشراق؟ و متى بدأت الحركة الاستشراقية؟ و ما هي أهدافه و دوافعه؟ و ما هي أهم الوسائل التي استعملها المستشرقون؟
- كيف استغل المستشرقون المدونة العربية للفتح الإسلامي؟ و ما مدى صحة الكتابات الغربية حول الفتح الإسلامي؟

أولا: الاستشراق الفرنسي

1. تعريف الاستشراق:

لاشك أن مصطلح الاستشراق لم يكن معروفا حتى في اللّغة العربية كانت كلمة مولدة أي كلمة عصرية ولذلك يقال بان هناك أحرف في كلمة الاستشراق زائدة وأحرف أصلية، لاحظ الأصلية كلمة "شرق" و إن ما عداها فهي أحرف زائدة وهي كلمة مترجمة لمصطلح أجنبي. اختلفت معاني الاستشراق تبعاً للهدف الذي وجّه أصحابه، مما أسفر عدة تعريف سنقوم بسردها تباعاً.

أ – في اللّغة:

الاستشراق مصدر من الفعل السداسي: استشرق، وأصله: (شَ رَ قَ)، والألف والسين والتاء إذا سبقت الفعل الثلاثي أفادت الطلب، وعلى هذا فاستشرق: أي طلب الشرق.(الزبادي، 2002، ص17)والشرق: الشمس، أو الجهة التي تشرق منها، والمَشْرِق: مثله، وفي النسبة: مَشْرِقِي (بفتح الراء

المنارة للاستشارات

وكسرها). والشَرْقَة والمَشْرقة (مثلثة الراء): موضع القعود في الشمس بالشتاء وتشرَّق: أي جلس فيه. وأشْرَق: دخل في وقت شروق الشمس، وأشرقت الشمس: أضاءت.(الفيروز آبادي، 2005،ص 1158)

وعلى هذا فمعنى الكلمة يدور حول: جهة الشروق، والضوء. فسمي الاستشراق بذلك لأن أهله (الغرب) طلبوا علوم المسلمين والعرب، وبحثوا في الإسلام، حيث كان مبدؤه من جهة الشرق بالنسبة لهم.

ب – اصطلاحا:

إن مفهوم الاستشراق (Orientalisme)يعني: "علم الشرق أو علم العالم الشرقي. (زقزوق، 1997، ص 18) وعّرف البعض الاستشراق أيضاً بأنه: "ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته".

(الامين، 1997، ص16)

وأحياناً يقصد به: "أسلوب للتفكير يرتكز على التمييز المعرفي والعرقي والأيدلوجي بين الشرق والغرب". ومرة يراد به:"ذلك العلم الذي تناول المجتمعات الشرقية بالدراسة والتحليل من قبل علماء الغرب.(الحاج، 2002، ص 20)

أما تعريف الموسوعة الميسرة فهو: "تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل ما يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم، وتاريخهم. ويقصد به: ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته وأديانه، وآدابه، ولغاته، وثقافته. ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق الإسلامي بصورة خاصة، معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما".(الجهيني، 1420 هـ، ص 687)

وبصفة عامة يمكن تعريف الاستشراق بأنه: "أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي(انطلوجي) ومعرفي(ابستمولوجي)بين الشرق و الغرب، ويستخدم دراسات أكاديمية يقوم بها علماء غربيين للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة وتاريخ ونظم وثروات وإمكانات، سواء أكانت هذه الشعوب تقطن شرق البحر الأبيض أم الجانب الجنوبي منه، وسواء أكانت لغة هذه الشعوب العربية أم غيرها من اللّغات لأهداف متنوعة ومقاصد مختلفة.

2. نشأة الاستشراق:

ليس من اليسير تحديد البداية الأولى للاستشراق، فلم "يُعرف بالضبط من هو أول غربي عُني بالدراسات الشرقيّة، ولكن المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس إبان مجدها وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربيَّة إلى لغاتهم."(Holt, 1952,pp.20-27) ولذا يعتبر البعض أن الإرهاصات الأولى للاستشراق مرتبطةٌ بظهور أول ترجمة لاتينيَّة للقرآن الكريم في سنة 1143م وقد نُسبت إلى الأب بطرس المبجل (ت 1157م).(النملة، 1993 ،ص30)

المنارة للاستشارات
ww

و من هذه الخلفيّة الدينيّة يمكن تسميتهم(المستشرقين الأوائل) فقد ربط مؤرخو الاستشراقما بين التبشير والاستشراق، "فهما متلازمان يصعب التفريق بينهما في كثير من الأحيان، وبخاصة في بداية نشأتهما، فأول مؤسس لكرسي الاستشراق بجامعة أكسفورد هو رئيس الأساقفة واسمه (لود) وذلك في سنة 1636م."

فمن الضروري للمنصِّرين معرفة لغة القوم الذين يريدون أن ينشروا بينهم دينهم، ولا يتوقف الأمر عند المعرفة فقط، وإنَّما محاولة الاطلاع الواسع على واقع تلك اللغة وتراثها ونقل كثير من كتبها عن طريق الترجمة إلى لغة المبشِّر الأصليَّة مع سيطرة روح التعصب وعدم انتهاج المنهج الموضوعي في الدراسات للتراث العربي والإسلامي فهم "قبل كل شيء رجال دين، فأخذوا يهدفون إلى تشويه الإسلام في نفوس رواد ثقافتهم من المسلمين لإدخال الوهن إلى العقيدة الإسلاميَّة والتشكيك في التراث الإسلامي والحضارة الإسلاميَّة وكل ما يتصل بالإسلام من علم وأدب وتراث".

(سمايلوفيتش، 1998، ص 77)

اختلف الباحثون في نشأة الاستشراق في تحديد سنة معنية أو فترة معينة لنشأة الاستشراق فيرى البعض أن الاستشراق ظهر مع ظهور الإسلام وأول لقاء بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) ونصارى نجران، أو قبل ذلك عندما بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) رسله إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية أو حتى في اللقاء الذي تمّ بين المسلمين والنجاشي في الحبشة. بينما هناك رأي بأن غزوة مؤتة التي كانت أول احتكاك عسكري تعد من البدايات للاستشراق. ويرى آخرون أن أول اهتمام بالإسلام والرد عليه بدأ مع يوحنا الدمشقي وكتابه الذي حاول فيه أن يوضح للنصارى كيف يجادلون المسلمين. ويرى آخرون أن الحروب الصليبية هي بداية الاحتكاك الفعلي بين المسلمين والنصارى الأمر الذي دفع النصارى إلى محاولة التعرف على المسلمين.

ومن الآراء في بداية الاستشراق أنه بدأ بقرار من مجمع "فيينا الكنسي" الذي دعا إلى إنشاء كراسي لدراسة اللغات العربية والعبرية والسريانية في عدد من المدن الأوروبية مثل باريس وأكسفورد وغيرهما، ويرى الباحث الإنجليزي (ب. إم هولت P.M. Holt) أن القرارات الرسمية لا يتم تنفيذها بالطريقة التي أرادها صاحب القرار لذلك فإن القرار البابوي هنا لا يعد البداية الحقيقية للاستشراق.

(Holt,1952,pp.20-27)

وثمة رأي له عدد من المؤيدين أن احتكاك النصارى بالمسلمين في الأندلس هو الانطلاقة الحقيقية لمعرفة النصارى بالمسلمين والاهتمام بالعلوم الإسلامية ويميل إلى هذا الرأي بعض رواد البحث في الاستشراق من المسلمين ومنهم الدكتور "مصطفى السباعي".

ولاشك أن هذه البدايات لا تعد البداية الحقيقية للاستشراق الذي أصبح ينتج ألوف الكتب ومئات الدوريات ويعقد المؤتمرات، وإنما تعد هذه جميعا كما يقول الدكتور "النملة "من قبيل الإرهاص لها وما أتى بعدها يعد من قبيل تعميق الفكرة، والتوسع فيها وشد الانتباه إليها".

المنارة للاستشارات

ww

(علي النملة،1993، ص33).

فالبداية الحقيقية للاستشراق بعد تأسيس كراسي للغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية مثل كرسي أكسفورد عام 1638 وكامبريدج عام 1632، ويضيف "سمايلوفيتش" بأن تأسيس الجمعيات العلمية مثل الجمعية الأسيوية البنغالية والجمعية الاستشراقية الأمريكية والجمعية الملكية الآسيوية البريطانية وغيرها بمنزلة "الانطلاقة الكبرى للاستشراق حيث تجمعت فيها العناصر العلمية والإدارية والمالية فأسهمت جميعها إسهاماً فعّالاً في البحث والاكتشاف والتعرف على عالم الشرق وحضارته فضلاً عما كان لها من أهداف استغلالية واستعمارية".(سمايلوفيتش، 1998،ص 81)

3. مراحل الاستشراق و تطوره:

الدارس لموضوع الاستشراق يطلع على أراء الباحثين و دراستهم حول الاستشراق يرى أن حركة الاستشراق قد مرت بعدة مراحل يمكن تبيانها كالتالي:

- المرحلة الأولى: مرحلة الانبهار بالحضارة الإسلامية.
- المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد الحروب الصليبية
- المرحلة الثالثة: مرحلة التنظيم الفعلي لحركة الاستشراق
- المرحلة الرابعة: مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

هدا التقسيم نجده عند أغلب الدارسين لموضوع نشأة و تطور حركة الاستشراق.

(الزيادي، 2002، ص 33)

4. أهداف و دوافع الاستشراق:

4-1 - الدافع الديني:

يعتبر الهدف الديني للاستشراق من الأهداف الواضحة التي صاحبته طوال مراحل تطوره حيث يقول "إدوارد سعيد": " إن الاستشراق السامي و الاستشراق الإسلامي لم يكونا قد حررا نفسيهما إلا إلى درجة ضئيلة جدا، من إسار الخلفية الدينية التي اشتق منها أصلا".(سعيد، 1980، ص 265).

كما استقر رأى"بطرس المبجل" (1092– 1156) على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية لفهم معانية أولا ثم الرد على المسلمين بعد دراسته و تمحيصه، من أجل هداية المسلمين حسب تعبيره إلى النصرانية و ردهم عن دينهم.(الحاج، 1991، ص43، 44)،

فالهدف الديني للاستشراق كان ذا وجهين و موجه إلى فئتين مختلفتين الوجهة الأولى للعقل الأوربي المسيحيو الوجهة الثانية للعقل المسلم، فالأول من أجل تشويه صورة الإسلام و حجب محاسنه لصرف نظر الأوربيين عن الإسلام و الثاني بغرض التشكيك في العقيدة الإسلامية و الدين الإسلامي على العموم.(الخريطولي، 1988، ص 25).

المنارة للاستشارات
ww

2-4- الدافع الاقتصادي:

يجزم بعض الدارسين لميدان الاستشراق بأن هناك دافعاً اقتصادياً وراء تشجيع ذلك الزّخم الكبير من الدراسات الاستشراقية، و يتمثل ذلك في رغبة المستعمر في غزو بلاد الشرق اقتصاديا بهدف الاستيلاء على خيراتها و ثرواتها الطبيعية التي تكون المادة الأولية في صناعتها، بحيث نعلم أنه في تلك الفترة قامت النهضة الصناعية و التي كانت بحاجة ماسة إلى الثروات الأولية.(الميداني، 2008، ص 93)

و القضاء على الصناعة المحلية لتصبح البلاد العربية و الدول المستعمرة سوقا استهلاكية لمنتوجات الغرب.

3-4- الدافع العلمي:

إنصافا للمستشرقين و الدراسات الاستشراقية هناك ثلة منهم أقبلوا على دراسة الشرق و العلوم الشرقية بدافع علمي محض، و ذلك بغية الاستفادة من تراث و حضارة هذه الأمم و إفادة العالم بما توصلوا إليه من أبحاث و دراسات من خلال الترجمة لأهم الكتب و المخطوطات في شتى العلوم.أما المجموعة الثانية من المستشرقين فكانت تشكك في التراث و الحضارة الشرقية، و كذا الحضارة الإسلامية. على سبيل المثال لا الحصر يرى بعض المستشرقين بأن الفقه الإسلامي مستمد من الفقه الروماني و أن اللغة العربية لا تستطيع مواكبة الحضارة و التطور العلمي.

(الزيادي، 2002، ص 95)

4-4- الدافع السياسي و الاستعماري:

لقد استفاد الاستعمار كثيرا من التراث الاستشراقي، كما أن الاستعمار عمل على تعزيز موقف الاستشراق، حيث استطاع الاستعمار تجنيد عدد كبير من المستشرقين لخدمة أغراضه، و تحقيق أهدافه، من أجل السيطرة و الهيمنة على البلاد المستعمرة،(بن بني، 1969، ص 11) هذا ما يفسر العلاقة الوثيقة بين الاستشراق و الاستعمار.

يمكننا أن نستخلص بأن التراث و الدراساتالاستشراقية كانت بمثابة الدليل و الطريق للمستعمر من أجل فرض هيمنته و تسهيل حكم الشعوب المستعمرة من خلال معرفة ذهنيات و مستوى تفكير هذه الشعوب. مع خدمة مخططات المستعمر بطرق عديدة و متنوعة منها:

- إحياء النزعات القبلية.
- إثارة الخلافات المذهبية و الفقهية.
- إثارة الفتن
- التركيز على الجوانب القاتمة في الدين الإسلامي(الحركات الخارجية)

المنارة للاستشارات
ww

5. وسائل الاستشراق الفرنسي:

بالإضافة إلى جهود المستشرقين الفرنسيين، فقد تجلّى الاستشراق الفرنسي في مظاهر عديدة، ويمكن إجمال المؤسسات العلمية التي أنشأتها فرنسا في الأمور التالية:

- كراسي اللغات الشرقية.
- المكتبات الشرقية.
- المطابع الشرقية.
- الجمعيات الاستشراقية.
- المجلات الشرقية.
- المجموعات الشرقية.
- المؤتمرات

6. أهم المستشرقين الفرنسيين:

- سلفستر دي ساسي(Silvestre de Sacy)(1758م-1838م): يعد هذا المستشرق من أهم المستشرقين الفرنسيين، وقد تتلمذ على يديه مشاهير المستشرقين من فرنسيين وألمان وبريطانيين.
- غوستاف لوبون(Gustave Lebon): ولد في 7 مايو1841م. وهو طبيب، ومؤرخ وفيلسوف مادي، عني بالحضارة الشرقية.. من علماء الاجتماع والتاريخ ، عرف في الأوساط الإسلامية بإنصافه للحضارة الإسلامية في كتابه حضارة العرب. توفي عام 1931م. (مغلي، 2002، ص 71)
- ليفي بروفنسال(Lévi Prvençal): اشتهر هذا المستشرق بأبحاثه في تاريخ المسلمين في إسبانيا، ولد في العاصمة الجزائر عام 1894م من أسرة يهودية، وتلقى تعليمه في ليسه قسنطينة في الجزائر. تخرج من كلية الآداب في جامعة الجزائر.
- لويس ماسينيون(Louis Massignon): هو أحد دعائم الاستشراق (وخاصة ما يتعلق بالتصوف الإسلامي).ولد لويس ماسينيون عام 1883م في إحدى ضواحي باريس. توفي عام 1962م.
- مستشرقون آخرون: لم ينته نشاط المستشرقين الفرنسيين، ولم يكتفوا بما سطرته أنامل أساطينهم القدامى والمحدثون بل هناك العشرات إن لم يكن مئات لم يذكرهم هذا البحث المتواضع، فاكتفيت بتعداد أسمائهم ، واكتفيت بذكر الأسماء فقط (لقلة المصادر، وضيق الوقت، وصغر حجم البحث)، فمنهم –على سبيل المثال لا الحصر: ألفريد بل(Alfred Bel)، وليام مارسه(W. Marçais)، جورج مارسه(G. Marçais)، بلانشار(Blanchard)، جاك بيرك(J. Berque)، هنري ماسه(H. Massé)، مارشلكوهينز(M.Kohinz).**(بن إبراهيم، 2009، ص30)**

المنارة للاستشارات
ww

ثانيا: الفتح الإسلامي للمغرب الأوسط:

يعتبر البحث حول تاريخ المغرب الإسلامي في نشأته من أهم وأصعب مواضيع البحث في التاريخالإسلامي العام، لما عرفه من اضطرابات و ثورات، وحملات عسكرية، صبغته في قرنه الأول للهجرة.

وهذا أمر طبيعي، في تاريخ البشرية الّذي يولد مع أي احتكاك أو اتصال بين ديانتين أو حضارتين أو قوميتين وهو ما حدث بين المغرب والحياة العربية عن طريق الفتوح الإسلامية، هذه الفتوح التي كانت حركة عظيمة الأثر في تاريخ شمال إفريقية.

من هنا وجد المؤرخون والباحثون في تاريخ المغرب الإسلامي مادة خصبة في دراساتهم وبحوثهم وفي استنتاجاتهم المختلفة باختلاف مشاربهم ومناهلهم ومذاهبهم.

وقد انحصرت هذه الدراسات في مدرستين كبيرتين، هما المدرسة الإسلامية والمدرسة المسيحية (الاستشراقية)، واللتان تعرفان بعضهما البعض. لما عاشاه بالمشرق من صدام، قبل التقائهما بالمغرب. والملاحظة الهامة والأولى التي يستقيها الباحث في تاريخ المغرب الإسلامي، أن جل الباحثين والمؤرخين اهتموا بالتاريخ السياسي والعسكري لهذا الإقليم، لهذا يجد أي باحث مبتدئ في تاريخ المغرب الاجتماعي أو الثقافي شحا في المعلومات في أغلب المصادر التاريخية(المغربية منها أو المشرقية).

1- أسباب الفتح الاسلامي من وجهة نظر المستشرقين الفرنسيين:

من اللافت للانتباه أن المصادر العربية عندما عالجت موضوع الفتح الإسلامي لبلاد المغرب أغفلت الحديث عن أسبابه، مما ترك الباب مفتوحا على مصراعيه للتفسيرات و التأويلات و النبش من طرف الحاقدين على الإسلام ، هذا ما استغله المستشرقون الفرنسيون لملأ الفراغ الذي تركته المصادر العربية و الكتابة وفق طريقة تنسجم مع اتجاهاتهم السياسية و الاديولوجية.

يمكننا سرد ما كتب بعض المؤرخين و المستشرقين الفرنسيين حول الفتح الإسلامي لبلاد المغرب و كيف حرفوا الأهداف الأساسية للفتح.

* أرنست مارسيE. Mercier: " ..بعد انتهاء حروب اقرار الدين الإسلامي، بانتصار حققته هذه العقيدة رمى محمد صل الله عليه و سلم المناطق المجاورة لبلاده بأتباعه، ثم صار الجهاد بعد ترسيمه الذريعة المتجددة للتوسعات على المناطق الأخرى. (Mercier, 1875, pp51- 52)

* بوسكيGH Bousquet: إن النبي محمد صل الله عليه و سلم لم تتجاوز توسعاته حدود بلاد العربو بعد عشر سنوات من وفاته احتل أتباعه جزءا من بلاد البربر و وصلوا إلى مدخل شمال افريقيا.(Bousquet, 1957.p47)

المنارة للاستشارات

* تيراسH. Terrasse: في عهد الأمويين الذين حافظوا على مكانة الاسلام في شبه الجزيرة العربية تحولوا شيئا فشئا نحو الغرب و استولوا على ارث العالم الإغريقي و استولوا على البحر المتوسطو الموانئ الرومانية القديمة و اصبحت قوة بحرية في وقت قصير.(Terrasse,1946,p47)

* جورج مارسي G. Marçais: يرى أن التفاني في نصرة العقيدة و التعطش إلى الشهادة يجتمعان في روح المجاهدين الأوائل. و من خلال قراءة الحوليات نرى أن امل الحصول على الخيرات الدنيوية يتغلب عند غالبيتهم، على رغبة الموت في ساحة القتال من أجل العقيدة. كما أن بلاد المغرب تبدو لهم أرضا للغنيمة أكثر منها أرضا للجهاد.(Marçais, 1946, p 22)

كما أن بلاد البربر قدمت للمسلمين موارد حقيقية محركة لكل الأطماع حيث كانت المنافع الخيالية المتحصل عليها هي التي تهم الاخباريين في الروايات الخاصة بفترة الاحتلال. اما الغنائم فجزء منها كان يرسل لمقر الخلافة الأموية. كما ثبت أن المقاتلين كان همه البحث أثناء الغارة على كيفية الاستيلاء على خيرات ينون إبعادها عن التقسيم.(Marçais, 1946, p23)

*كودالM. Caudel: يقول أن هناك تعليمة يسمعها العربي بأذن صاغية و يشعر أنه على استعداد تام لاتباعها و هي التي تأمر بالحرب المقدسة، فلولا الجهاد الذي أعطى متنفسا لهيجان حروب أتباع العقيدة الجديدة لألتهم الاسلام في صراعات داخلية دون أن تصلنا أخبارها.(Claudel,1900 , p27)

أما ما يدهش على الخصوص حسب رأيه في الحملات العربية هو الأهمية التي تحتلها الغنيمة فيها، إذ بمجرد ما تنتهي المعركة يقتسمها المقاتلون، و يبدو، من العناية التي يوليها الانسان العربي لهذه العملية التي تمثل في نظره منفعي أساسية.

أ - أسباب نجاح الفتوحات في الشمال الإفريقي من وجهة نظر المستشرقينالفرنسيين:

1- من وجهة نظر ألفريد بل"(A. Bel):

أ – تنظيم الجماعات العربية البدوية الفقيرة تحت لواء الإسلام نظاما و شريعة مما جعل منها قوة حربية متماسكة.

ب – الضعف السياسي والعسكري الذي أصاب الدول المجاورة للجزيرة العربية(الإمبراطوريتين البيزنطيةو الفارسية)، التي أنهكت كل منهما الأخرى بالحروب فيما بينهما حتّى بداية القرن السابع الميلادي.

و يعلق "ألفرد بل" عن هذه الأسباب فيقول:"... و هذه الأسباب عينها هي الّتي أدت إلى انتصار العرب في الشمال الإفريقي الخاضع لبيزنطة و كان من الناحيتين السياسية و العسكرية ضعيفاً ضعف سوريا و فارس في نفس العصر."(بل، 1996، ص 76)

حيث يحمل كلام ألفريد بل للفتح الإسلامي لبلاد المغرب مغالطات تاريخية حيث سماه غزو العرب للبلاد المجاورة. واعتبار موازين القوة هي الفيصل في نجاح الفتوحات و عجلت بانتصار إسلامي في الشمال الإفريقي، أي أن المسلمين استغلوا ضعف الإمبراطوريات القائمة آنذاك لفتح شمال

المنارة للاستشارات
ww

إفريقيا، وهذه من المسائل التي خاض فيها جل المؤرخين و المستشرقين الغربيين، وهذا ليس صحيحا لأن الفتح الإسلامي لم يتعامل بمنطق الحرب، و إنما تعامل مع الشعوب و الدول بمنطق الحرية الإنسانية، و تلخيص الإنسان من الوثنية بطريقة سلمية ليس فيها شيء من العنف و التعسف.

وما يفند ادعاءات "ألفريد بل" هو أن الإسلام دخل مناطق كثيرة من الشّمال الإفريقي ولم تكن هذه المناطق مناطق نزاع عشائري أو سياسي، و إنما كان انقيادها للإسلام انقيادا نابعا من قناعتها بإنسانية الدين الوافد رغم استعانته بما كتبه ابن خلدون في مرحلة الفتح الإسلامي.

(ابن خلدون، 2004،ص 214-301)

ويفند كذلك"شوقي أبو خليل" مقولة " ألفريد بل" بقوله أن الإسلام لم يقم على اضطهاد مخالفيه أو مصادرة حقوقهم أو تحولهم بالكره عن عقائدهم، أو المساس الجائر بأموالهم.(أبو خليل ،1998،ص 50)

2 - كارل بروكلمان(C. Brocolmann): قد أسهب في الفتح الإسلامي باعتباره غزوا و انتشر بحد السيف حيث يقول:" يتحتم على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين حيث وجدهم لأن محاربة غير المسلمين واجب ديني. (بروكلمان ، 1965،ص78).

3 - فريديريك موريس(F.Morris): فقد أبرز الجانب العدواني للإسلام حسب رأيه حيث قال:"من الثابت أن الإسلام لم يكن ليصادف نجاحا إلا عندما كان يهدف إلى الغزو". (Maurice, 1952,p 28)

4 - ميور و كيتاني(W. muir- L.Caetani): يرجع ازدياد عدد المؤمنين إلى الانتصارات العسكرية و إكراه الناس على الدعوة الموجودة في تعاليم الدين الإسلامي.(أرنولد ، 1965،ص 469).

5–غيومانلوستير(G. Le Ster): فقد ادعى الطابع الحربي للإسلام حيث يقول:"إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة و قالوا للناس أسلموا أو موتوا بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم و إحسانهم".(غيومان و لوستير، ب ت ، ص ص 80 – 82).

6 - القس كولي: ويؤكد على الصورة القاتمة و المروعة عن الإسلام حيث يبرر أن فتوحاته كانت غزوا صاحبته كثير من مظاهر السلب و النهب و الاغتصاب، حيث يقول: " في القرن السابع للميلاد برز في الشرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام الذي أسّس على القوة، و قام على أشد أنواع التعصب، لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه و تساهل في أقدس قوانين الأخلاق ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات".(كولي، 1986، ص220)

وعلى العموم فإن هناك اتهامات للإسلام بالتعصب في أثناء فتوحاته في الشرق و الغرب حيث أن الفكرة الجامعة في الفكر الغربي و الاستشراقي أن سيف الإسلام أخضع شعوب المعمورة في الشرق و الغرب شعبا بعد شعب.

هذه بعض أراء المستشرقين المتعصبين حول الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، أما الأفكار المخالفة لهذا الطرح نذكر منها ما ذهب إليه بعض المؤرخين و المستشرقين الذين أنصفوا الفتح الإسلامي و

المنارة للاستشارات
ww

اعتبروه فتحا سلميا حيث يقدم "توماس أرنولد" شهادة تاريخية عن روح التسامح التي صبغت الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الإسلامي حيث يقول: "ولم يضع عمرو بن العاص يده على شيء من ممتلكات الكنائس ولم يرتكب عملا من أعمال السلب و النهب و ليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن دخولهم للإسلام راجع للاضطهاد أو الضغط بل كثير منهم أسلم قبل الفتح." (أرنولد، 1965، ص92)

و يسهب في التحدث على الفتح الإسلامي و الفاتحين المسلمين الذين فتحوا بلاد المغرب و الأندلس كانت تجمعهم مع الفاتحين الأولين أصولا واحدة في التعامل مع غير المسلمين.

ويؤكد ليفي بروفنسال الطابع السلمي للفتح الإسلامي لبلاد المغرب والشّمال الإفريقي وذلك بموضوعية تراعي الحقائق التاريخية المخالفة لطريقة كثير من المستشرقين.(بروفنسال، 1990، ص ص 45- 49).

ب - انبهار المؤرخين الغربيين من الفتح الإسلامي:

ولهذا ما يكاد المؤرخون يسجلون هذه الفتوحات إلاّ وتغلبهم الدهشة من تلك السيرة وهكذا انتشر بينهم العجب حتى ليشعر المرء أحيانا أنهم يتفننون في وصفهم للفتوحات الإسلامية ليأتوا في وصفها بما لم يقله غيرهم:

فيصفها الفيلسوف الشهير "برتراندرسل"(B. Russell)بأنها خارقة لكل مألوف فيقول: "يبدأ العصر الإسلامي بالهجرة، سنة 622م، ومات محمد "صلى الله عليه وسلم" بعدها بعشر سنوات؛ فبدأت الفتوحات العربية بعد موته مباشرة، وسارت بسرعة خارقة لكل مألوف."(رسل،2010، ص181)

ويصفها مؤرخ الفلسفة "إميل برهييه"(E. Bréhier)بأنها أمر صاعق، يقول:"تحددت مصائر الغرب في العصر الوسيط جزئيا بالفتح العربي الذي امتد من الهند إلى إسبانيا وتقدم وصولا إلى جنوبي إيطاليا والجزر اليونانية ليقيم ما يشبه الحاجز بين أوروبا وآسيا؛ وليس يجهل أحد كيف انبسطت في قرن واحد (ابتداء من سنة 635) هيمنة العرب على نحو صاعق، فلم تتوقف، وقد خارت قواها المتقدمة إلا عند أبواب بواتييه (شمال فرنسا) سنة 732، والتركستان الصيني سنة 751. وقد حمل العرب معهم لغة وديانة صارتا منذئذ لغة وديانة لأصقاع شاسعة."(برهييه ، 1983، ص114)

ويصفها المؤرخ والمفكر البريطاني" إ. هـ. جومبريتش"(E. Gombrich) بالنار المنتشرة، يقول: "بدا كأن الناس قد أصيبوا بالشلل في مواجهة هذه الحماسة الدينية الجامحة. وفي خلال ست سنوات من وفاة محمد "صلى الله عليه وسلم"، كان العرب قد حققوا فتوحات في فلسطين وبلاد الفرس، كما كدسوا كميات ضخمة من الغنائم. بعض جيوش العرب الأخرى هاجمت مصر... وفي خلال أربع سنوات كانت قد سقطت في يد الجيوش. لاقت مدينة الإسكندرية العظيمة المصير نفسه. تنقلت الإمبراطورية العربية من قوة إلى قوة، تنتشر نيرانها من مكة وفي كل الاتجاهات. وكأن محمدا قد ألقى شرارة متوهجة على الخريطة". (جومبريتش، 2013، ص164)

المنارة للاستشارات
ww

ويصفها المستشرق الإيطالي "فرانشسكوجابريلي"(F.Gaberieli)بأنها أمر لم يسبق له مثيل، يقول: "كانت انتصارات الإسلام في مرحلته الأصلية تلك، إقامة للإمبراطورية العربية، وكان توسعا لشعب، كان حتى ذلك الحين حبيس إرثه الصحراوي، امتد على قارتين، واتسم بطاقة ونجاح لم يسبق لهما مثيل."(جابريلي ، 1987 ،ص88)

ويصفها المستشرق البريطاني "مونتجمري وات" (M. Watt)بالمذهلة، يقول: "كان الفتح العربي، بين سنتي 711 - 716م مفاجأة مذهلة لسكان إسبانيا. أما العرب أنفسهم، فلم يكن اجتياح إسبانيا في نظرهم سوى مرحلة من عملية التوسع الكبرى. كانت مرحلة عظيمة الفائدة وناجحة جدا، ولقد تحقق النجاح بسرعة قصوى... لم يكن التقدم هنا تدريجيا، بل في سلسلة من الوثبات كانت تتخللها فترات من الهدوء والتوطيد"(وات ، 1998م، ص20)

ويصفها "جاك ريسلر" (J. Restler)بالباهرة، يقول: "تقوم انتصارات العرب الباهرة على أمور متنوعة، يكمن أهمها في الروح الأخلاقية الرفيعة التي كانوا يستمدونها من الدين الجديد؛ فقد كان الإسلام قد علمهم الشجاعة وازدراء الموت اللذين جعلاهم أشداء لا يُقهرون. إلى هذه الفضائل الأخلاقية ينبغي تضاف تقنية حربية كانت تحترم تشكيل وحدة القبيلة".(ريسلر، 1993، ص46)

ويصفها المفكر الفرنسي"دومينيك سورديل"(D Sourdel) بالمهيبة المدهشة، يقول:"هذه الفتوحات التي يبدو ذكرها مهيبا ومدهشا، لابد من معرفتها لأنها هي التي سمحت للإسلام بالانطلاق كدين عالمي انتشرت معه بذات الوقت و تنامت الحضارة المرتبطة به. عندها ظهر المجتمع العربي الإسلامي الذي كان مكان ازدهاره إمبراطورية متعربة ومسلمة. ولكن الظاهرة التي يمثلها هذا المجتمع وهذه الحضارة، لم تكن إلا لتذهل العديد من المؤرخين: كيف استطاعت حركة بمثل هذه الضخامة وبمثل هذه السرعة أن تكون ممكنة؟"(سورديل، 2003، ص35).

ويتابع بقوله: "النجاح الذي لاقته هذه الغزوات... يدل ويفسّر كيف تضخمت الحركة بهذه السرعة. ويبقى إذن، أن نفسر كيف استطاع فرسان رحل ذوو أسلحة خفيفة، وبسرعة عجيبة، النجاح في الاستيلاء على قسم من آسيا، وعلى إفريقيا الشمالية وإسبانيا وفي احتلال القسم الآخر من الممتلكات البيزنطية-بما فيها الأناضول الذي تعرض من ذلك الحين وحتى أسوار القسطنطينية لعدة غزوات- ثم القضاء تماما على الإمبراطورية الساسانية التي قُتل ملكها الأخير بعد انهزام جيوشه بصورة نهائية."(سورديل، 2003، ص37)

ويقول "ألبرت حوراني" أن التّغيير كان مفاجئً وغير متوقع، يقول:"عند نهاية حكم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب(634 - 644م) كانت قد فُتحت الجزيرة العربية كلها وجزء من الإمبراطورية الساسانية والولايات السورية والمصرية من الإمبراطورية البيزنطية ولم تلبث بقية أراضي الامبراطورية الساسانية أن فتحت هي الأخرى. وفي غضون سنوات قليلة بعد ذلك كانت الحدود السياسية للشرق الأدنى قد تغيرت، وانتقل مركز الحياة السياسية من أراضي الهلال الخصيب الغنية والآهلة بالسكان

المنارة للاستشارات
ww

إلى مدينة صغيرة قابعة على طرف العالم الغني ذي الثقافة العالية، وقد كان التغير مفاجئا وغير متوقع بحيث يحتاج إلى شرح."(حوراني، 1997،ص 56).

2- آثار الفتح الإسلامي.

درج بعض المؤرخين الغربيين على تصور خاطئ ينتقد الفتوحات الإسلامية للمغرب الأوسطو ينتقص منها و يصف الحضارة الإسلامية بأنها همجية و بربرية اتخذت العنف كوسيلة لتمرير رسالتها و إخضاع مخالفيها، وهذا التصور من الناحية التاريخية و الموضوعية بعيد كل البعد عن حقيقة الحضارة الإسلامية، فهو تصور شمولي فرضته بعض المذاهب الاستشراقية الغربية، و التي اتخذت من الإسلام موقفا مسبقا يخالف الحقائق التاريخية.

من جملة ما انطوى عليه التصور الاستشراقي المتعصب، تلك الحملات الفكرية التي استهدفت الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب، التي يدعي بعض الباحثين الغربيين بأنها لم تكن فتحا، بل كانت أشبه بالغزو المنظم و الموجه، و أن المغرب الإسلامي أصيب بما يسمى بالسرطان الإسلامي الذي ظهر في أرضها و امتد من خلالها إلى الأندلس و إفريقيا.

2-1- الأثر الديني:

أقبل البربر والأفارقة على اعتناق الإسلام خلال السّنوات التي شهدت خلالها بلاد المغرب حركة المد والجزر في الفتوح، فقد كانت أربعون سنة من استقرار المسلمين بالشمال الإفريقي منذ قدوم عقبة بن نافع كافية لجعل كثير من البربر يعتنقون الإسلام عن عقيدة واقتناع، وكان من بين هؤلاء المؤمنين، طارق بن زياد الذي تم بفضله إقرار الإسلام في الأندلس. (زغلول، 1993 ،ص 115)

وقدر لبعض البربر أن يصبح أكثر حماسة للإسلام من العرب أنفسهم،حيث أدرك موسى بن نصير هذه النزعة فاستغلها بتوجيههم إلى الفتوحات الخارجية، ولم يكن بإمكانه في هذه الحالة سوى عبور المضيق لِتحقيق هذا الغرض(البلاذريّ، 1997، ص228)

ومن جهة أخرى يلاحظ أن: بعض قبائل البربر التي أعلنت إسلامها في عهد موسى بن نصير يغلب الظن أنها فعلت ذلك خوفا على نفسها نظرا لانتهاج الوالي الجديد نهجا عنيفا وقاسيا في قتالها، مما أدخل الهلع والذعر في نفوس أبنائها، وهذا ما دفعهم إلى طلب الأمان وإعلان إسلامهم.

(Gastineau, 1961, P 251)

لكن هذه الفئة من البربر بقيت تحقد على العرب وتتحين الفرصة للانتقام منهم، فاعتنقوا أفكار الخوارج لأنهم وجدوا فيها سبيلا للثورة على الحكم الإسلامي «العربي» للتخلص منه.

(Julien, p, 347 – 348)

أما المسيحية فقد تراجعت بشكلٍ كبير حتى اختفت كليا من كافة أنحاء المغرب وفق الرأي التقليدي، ويعتقد أن سبب تراجع واختفاء المسيحية في إفريقية كان بسبب عدم وجود رهبنة قوية متماسكة تضم حولها شتات النصارى الأفارقة، كما أن الكنيسة الإفريقية كانت حتى زمن الفتوح

المنارة للاستشارات
ww

الإسلامية ما تزال تعاني من آثار الاضطرابات بينها وبين كنيسة القسطنطينية ومن الحركات والثورات التي قام بها الهراطقة.(Maurice ,1900,p24)

لهذا، يبدو أن الأفارقة والبربر المسيحيين وجدوا في الإسلام منقذا لهم من تلك التخبطات التي عانوا منها، ويبدو أن بعضهم الآخر كان يعتنق المسيحية ظاهريا فقط. ويتجه الرأي المُعاصر، بالاستناد إلى بعض الأدلة، إلى القول بأن المسيحية الإفريقية صمدت في المنطقة الممتدة من طرابلس إلى المغرب الأقصى طيلة قرون بعد الفتح الإسلامي، وأن المسلمون والمسيحيون عاشوا جنبا إلى جنب في بلاد المغرب طيلة تلك الفترة.(ابن الأثير ،1987 ، ص 408)

2-2 - الأثر السكاني:

كان سكان المغرب قبيل الفتح الإسلامي عبارة عن خليط عرقي أفريقي - أوروبي بالمقام الأول، وآسيوي بِدرجة أقل. فأهل بلاد المغرب الأكثر عددا وانتشارا كانوا البربر أو الأمازيغ، وهؤلاء قوم من أصول إيبيروموريسيةبحسب الظاهر،ويبدو أنهم استوطنوا افريقيا الشمالية منذ حوالي 10,000 سنة ق م.(Devaux,1859, p 153)وقد انقسم هؤلاء إلى عدة قبائل يصعب رسم خريطة دقيقة لتوزعها في بلاد المغرب في العصور الإسلامية الأولى لأن الكتاب الأوائل لم يهتموا بإعطاء المعلومات التفصيلية عن القبائل وتوزيع مواطنها، بل تكلموا عنها بشكل عام. (المراكشي،1983، ص 6)

ومن تلك الأقليات :الأفارقة أو الأفارق وهؤلاء من مولودي الروم والبربر أو مولودي الفينيقيين الساميين والبربر، أي هم من سلالة البونيقيين الذين خضعوا للرومان واصطبغوا بالصبغة الرومانية. (Desanges,1990,pp 236-245)

في حين أظهرت الدراسات الأنثروبولوجية التي أجريت على سكان بلاد المغرب خلال القرن العشرين الميلادي وجود أصول افريقية سوداء للعديد من المغاربة، (ابن عذاري ،1983، ص 16 – 17)

ومع استقرار الفتوح الإسلامية في المغرب، نزل العرب في العديد من المدن والبلدات والقرى إلى جانب البربر والجماعات العرقية سالفة الذكر، وساهم استيطان العرب ببلاد المغرب واختلاطهم بالسكان الأصليين في بناء المُجتمع الإسلامي الجديد، فمنذ الفتوحات الأولى وفد إلى بلاد المغرب أكثر من 180,000 رجل من المُقاتلين العرب استقر أغلبهم فيما بعد بالقيروان.(ابن عذارى ،1983 ص41)

وقد كتب اليعقوبي أنه كان بالمدينة سالفة الذكر أخلاط من الناس من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان وأن بها أصناف من العجم من أهل خراسان ومن كان وردها مع عمال بني هاشم من الجند وأنه رأى فيها عجم من عجم بلد البربر والروم وأشباه ذلك .

ومع مرور الوقت ونتيجة التثاقف طويل الأمد، استعرب الكثير من البربر واقتبسوا الهوية واللغة العربية، وأغلب هؤلاء كان من أهل المدن، بينما بقي أغلب سكان الأرياف يحتفظون بهويتهم القومية الأصلية. وقد بينت دراسات لاحقة أجريت خلال القرن العشرين الميلادي أن استعراب البربر كان نتيجة استيعاب ثقافي دام سنوات طويلة.

المنارة للاستشارات
ww

2-3- - الأثر الإداري:

جعل الأمويون بلاد المغرب كلها من برقة إلى طنجة ولاية واحدة مركزها القيروان، فتلاشى بذلك التقسيم البيزنطي وأصبحت المدن وما يتبعها من أعمال تابعة للقيروان، وعين عمال لطرابلس وتونس وتلمسان وطنجة والسوس. (اليعقوبي، 1860، ص 123)

وعمد الولاة الأمويون في بلاد المغرب إلى تقوية صلاتهم مع البربر عن طريق نشر الإسلام بين صفوفهم، وقد لاقت هذه السياسة في البدء نجاحا كبيرا وعمد هؤلاء الولاة إلى احترام عادات وتقاليد البلاد المفتوحة حديثا طالما كانت تلك العادات والتقاليد لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية أو مع سياسة الدولة الأموية، فأبقوا على النظم الإدارية السائدة وتركوا أكثر الوظائف بأيدي البربر وسواهم من سكان البلاد الأصليين، على أن تلك العلاقة السلمية عرفت شيئا من الاضطراب مع بداية غروب شمس الخلافة الأموية لاحقا.(Maurice,1900, p24)

2-4- الأثر الاجتماعي:

القارئ لما كتب عن تاريخ بلاد المغرب تستوقفه ملاحظة هامة تتوقف عندها جل الأبحاث التاريخية وخاصة الفرنسية منها، وهي إدراجهم في مؤلفاتهم مبحثا خاصا عن أسلمة وتعريب المنطقة ؟ محاولين الإجابة عن سؤال: لماذا تعربت بلاد المغرب ؟(Gabriel, p 07).

وهذه الأبحاث تنطلق من إقرار موضوعي فرض عليهم ذلك التساؤل، وهو أن بلاد المغرب تعربت وجعلت من اللغة العربية لغة ثقافته العامة منذ دخول الإسلام إلى المنطقة، وهذا التساؤل يطرح بصيغة الاستغراب والدهشة خاصة عندما يقارن بحدث تاريخي هام عرفته المنطقة ولم ينتج عنه تحول في ثقافتها ولغتها، ألا وهو خضوعها للهيمنة الرومانية لعدة قرون.

فقد لاحظ هؤلاء الباحثون أنه وبمجرد دخول الإسلام إلى المنطقة تعرضت الثقافة واللغة اللاتينية إلى الاضمحلال بسرعة كبيرة، ولم يعد لهما أي تأثير ابتداء من القرن الثاني الهجري. (Marçais,1946,p40)

ورغم هذا الاتفاق بين الباحثين حول موضوع تعريب المغرب فإنهم اختلفوا في تحديد العوامل المفسرة لذلك، والدراسة المتعمقة لتاريخ المغرب وللأبحاث التي أنجزت حوله تجعلنا نتوقف عند عدة عوامل و هي :

أولا: تتفق الأبحاث التاريخية أن المنطقة لم تعرف لغة موحدة ولم تطور لغة خاصة بالثقافة العالمة، فكانت اللاتينية هي لغة الكتابة في فترة الفتوحات العربية الإسلامية، وكانت في نفس الوقت لغة معزولة غير معتمدة إلا في حدود نخبة ضيقة تعد على رؤوس الأصابع، ولم تستطع أن تكسب شعور عامة السكان الذين تمسكوا بلغاتهم دون تطويرها لتصبح لغة الثقافة العالمة، وعندما دخل

المنارة للاستشارات
ww

الإسلام إلى بلاد المغرب وجد هذا الوضع قائما، مما سهل من مأمورية انتشار اللغة العربية التي اعتبرها البربر لغة الإسلام يجب تعلمها و إتقانها.

ثانيا:الفتوحات العربية الإسلامية التي تعد الخطوة المؤسسة للتعريب، فبعد جهود مضنية استطاع الفاتحون فتح بلاد المغرب وإقناع ساكنتها بالإسلام وقيمه الحضارية، حيث أقبلوا عليه أفواجا أفواجا، خاصة بعد تأسيس مدينة القيروان التي مارست إشعاعا حضاريا على المنطقة جعلتها محط حج للساكنة الذين أعلنوا إسلامهم بأعداد كبيرة. (ابن خلدون، 2004، ص13)

كما كان قادة الفتح يتركون في المناطق المفتوحة دعاة يعلمون الناس أمور دينهم، كما فعل عقبة بن نافع عندما ترك صاحبه شاكر في إحدى مناطق المغرب الأقصى، وأيضا حسان بن النعمان و موسى بن نصير اللذين أرسلا مع القبائل التي أعلنت إسلامها مجموعة من الدعاة لنشر تعاليم الإسلام و اللغة العربية بين أبنائها.(ابن عبد الحليم، 1954،ص220)

كما تم إدماج أبناء القبائل البربرية في جيش الفتح للمساهمة في عملية الفتوحات، بداية بعقبة لتصل إلى مستوى تولي القيادة مع حسان بن النعمان وموسى بن نصير.

(ابن عبد الحليم،1954، ص228)

ثالثا : بناء المدن وإعمار القائمة منها حيث أصبحت محجا لكل القبائل المجاورة لها وخاصة مدينة القيروان التي مارست كما قلنا سابقا تأثيرا كبيرا على المنطقة ككل، وكانت الوسيلة للاندماج فيها هي تعلم اللغة العربية وهذا ما نجحت فيه، لتلتحق بها مدينة تونس وتاهرتوسجلماسة وفاس ونكور (غوردو، 2011، ص68)

رابعا : تأثير الحضارة البونيقية حيث أكد جل الباحثين أن هذه الحضارة التي تواجدت في المنطقة لقرون عديدة تفاعلت بشكل كبير مع ساكنة المنطقة، فاستمرت اللغة البونيقية في التواجد في المدن وبعض القرى وفي قصور أمراء البربر وعلى رأسهم ماسينيسا، وحتى عصر القديس أوغسطين الذي أكد في رسائله عن مدى تغلغل البونيقية في المنطقة، وهذا ما أكده المؤرخ بروكوب في القرن السادس ميلادي، فهذا التغلغل للغة البونيقية في المنطقة قد مهد الطريق لانتشار اللغة العربية، وسهل من مأمورية إقبال الأمازيغ عليها و الإبداع من خلالها. (Gautier, p104)

خامسا : بناء المساجد والكتاتيب فتذكر المصادر أن هذا البناء واكب مرحلة الفتوحات منذ بداياتها وتعمق بعد إسلام المنطقة، بدءا بجامع القيروان الذي ما لبث أن اشتد الإقبال عليه.

وهذا البناء شمل باقي المناطق، كما فعل عقبة حيث قام ببناء مجموعة من المساجد أثناء حملته على المغرب الأقصى مثل مسجد نفيس وغيره. (, p10Gautier)

كما ازدهر دور جامع الزيتونة بتونس الذي تحول إلى أهم مركز علمي في المنطقة، ثم جامع القرويين الذي تحول إلى منارة علمية عالمية.

المنارة للاستشارات
ww

سادسا: من الباحثين وخاصة الفرنسيين من يعتبر أن التعريب عرف دفعة قوية مع هجرة بني هلال وبني سليم ، الذين كان لهم دور كبير في فرض العربية على بلاد المغرب. (Gabriel,p135) بمعنى أن هذه الهجرة لو لم تقع لما كان المغرب تعرب بهذا الشكل.

لكن هذا الرأي فيه ضعف منهجي كبير لأنه خلط بين تعريب الثقافة العالمة وبين لغة التواصل اليومي، فنحن نتحدث عن لغة التعليم والإدارة والثقافة، التي كانت أصبحت ناجزة و رسمية قبل مجيء بني هلال، وكان التأليف والإبداع بها في جميع النواحي قويا ومزدهرا. بل العكس هو الذي حدث حيث أن تأثير هذه الهجرة كان سلبيا جدا على هذا المستوى، بل المصادر تتحدث على أن هذه القبائل لم يكن لها حظ من العلم و كان الجهل و الأمية متوغلة فيها وأنها تلقت تعاليم دينها وأصول ثقافتها من القبائل البربرية، أما التأثير الحقيقي فكان في لغة التواصل اليومي حيث سرعت من انتشار الدارجة العامة المتأثرة بالعربية و الأمازيغيات.(pMarçais, 48)

سابعا: دور الدعاة الذين دخلوا المنطقة مع بداية الفتوحات أو الذين جاؤوا لاحقا، من بينهم شاكر الذي تركه عقبة في منطقة السوس الأدنى.(ابن عبد الحليم، 1954، ص227)

في منطقة سيدي شيكر حاليا، و من المؤكد أنه لعب دورا مهما في هذا المجال، وأيضا أولئك الذين بعثهم كل من حسان بن النعمان و موسى بن نصير إلى القبائل البربرية لتعليمهم و إرشادهم، ليأتي دور العشرة من التابعين الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز لتعليم وتفقيه ساكنة المنطقة، والذين- كما تؤكد المصادر- حققوا نجاحا كبيرا في مهمتهم حيث تمكنوا من نشر تعاليم الدين الصحيح في صفوف البربر، وما يدل على ذلك أن مسجد القرويين لم يستطع استيعاب نشاطهم لذلك اتخذ كل واحد منهم مسجدا خاصا به. (المالكي، 1983،ص100).

3- نتائج الفتح الإسلامي لبلاد المغرب:

3- 1- تعريب بلاد المغرب:

كان من النتائج غير المتوقعة للفتوحات الإسلامية في شمال أفريقيا تعريب أهلها جزئيا، وكان مسار التعريب بطيئا، إذ تواصل حتى القرن العشرين ولم يحد منه سوى بروز المطلب الأمازيغي إلى الوجود. ومقارنة بمسار التعريب كانت أسلمة الأمازيغ أسرع نسبيا، فبعد مرور قرن ونصف على أول حملة عسكرية عربية تحت إمرة عقبة بن نافع (665م) أصبح الإسلام الدين الغالب في المناطق التي دأب الفاتحون الأجانب على الاستيلاء عليها.(العروي، 1977، ص 70)

ويفسر "ألان مورغ" البطء النسبي لاعتناق الشمال الأفريقي الإسلام مقارنة بالعراق والشام وفارس بأن الفاتحين العرب لم يجعلوا من أسلمة الأمازيغ أولوية أولوياتهم، ويردّ موقفهم هذا إلى خوفهم من نضوب عوائد الجباية في المنطقة إذ كان سيترتب عن اعتناق الأمازيغ الإسلام إعفاؤهم من الجزية والخراج.(**آلان مورغ** .www .quellehistoire.com)

المنارة للاستشارات
ww

ولم تندثر المسيحية واليهودية بمجرد ولوج العرب الشمالَ الأفريقي إذ بقيتا حيتين لدى أقليات حافظت عليهما لمدة ليست بالقصيرة، لكنهما لم تعودا تلعبان أي دور في الصراع الديني الذي أخذت تدور رحاه في المنطقة بحيث اقتصر على المذاهب الإسلامية (السنة والشيعة والخوارج).ويمكن الجزم بأن الفتوح الإسلامية كانت بداية احتضار طويل لهاتين الديانتين انتهى باختفائهماخلال القرن الـ12 الميلادي، أما دافع الأمازيغ في الانتماء إلى هذا المذهب الإسلامي أو ذاك فتمثل في الحفاظ على استقلاليتهم تجاه مركز الخلافة.كان الشمال الإفريقي بعد الفتح الإسلامي دائم التأثر بالجدل الدائر بين المذاهب في المشرق، بحيث شهد نفس الصراعات بين أهل الجماعة (ثم السنة) والشيعة والخوارج.وسرعان ما أصبحت هذه المنطقة ملجأ آمنا لكل الفرق الخارجية الهاربة من بطش الأمويين، بل وكثيرا ما كان الأمويون يحاولون التخلص من الخوارج بتسهيل لجوئهم إلى الشمال الأفريقي، فانغرس المذهب الخارجي بسرعة في أوساط الأمازيغ.

ويلاحظ المؤرخ عبد الله العروي أن ضعف الولاء للدولة الأموية وكون المذاهب السنية آنذاكلا تزال في طور التكون يفسران كلاهما "تحول المذهب الخارجي إلى مذهب نافح تحت لوائه الأمازيغ عن استقلاليتهم"، فقد أعطاهم هدا المذهب–خاصة سكان الأرياف منهم– مبررا دينيا لرفض الخضوع للحكم الأموي الوراثي الذي كانوا ينظرون إليه أساسا كحكم جل همه إثراء خزائن الخلافة بموارد الجباية.(العروي، 1977،ص 77)

وقد أسس الخوارج في الشمال الإفريقي عدة إمارات لكن لم تكن لها مطامع توسعية جامحة، ورغم عشرات الحملات العسكرية فإن شوكتهم لم تتصدع إلا تحت ضربات الشيعة الفاطمية، وبعد انتصار الفاطميين في بداية القرن 10م فر خوارج تاهرتالإباضيون إلى سدراتة ثم انتقلوا جنوبا نحو وادي مزاب وأسسوا مدنا محصنة ما زالوا يسكنونها.

2-3 - نشأة المذهب المالكي:

تزامنت الإمارات الخارجية في شمال أفريقيا مع الإمارة الإدريسية الشيعية (789–974) بالمغرب التي لعبت دورا بارزا في نشر الإسلام في المغرب الأقصى، كما تزامنت مع الدولة الأغلبية (801–909) بتونس التي تدين بالولاء للعباسيين مع حفاظها على درجة هامة من الاستقلالية. ويعني هذا أن الإمارات الخارجية كانت تواجه خصمين اثنين لا خصما واحدا: الأغالبة والأدارسة، ويفسر ذلك جزئيا المصاعب التي واجهتها في توسيع رقعة نفوذها.

وقد كان للجدل الدائر في المشرق بين المعتزلة والحنفية صدى كبير في قسم الشمال الأفريقي الخاضع للحكم الأغلبي، ولم يكن اتباع المدن به للمذهب الحنفي (في فترة معينة) إلا صدى لما كان يحدث في بغداد ومدن العراق.غير أن المذهب المالكي ما لبث أن تغلب على الحنفية، ويفسر الكثير من المؤرخين غلبته بسهولته واعتماده التفسير الحرفي للنصوص الدينية الذي يتلاءم حسب رأيهم مع الاحتياجات الروحية للأمازيغ الحديثي العهد بالإسلام.

المنارة للاستشارات
ww

ويمكن القول إن انتشار المذهب المالكي بدأ من القيروان عاصمة الأغالبة بفضل القاضي سحنون صاحب"المدونة" التي تعتبر حتى الآن أحد مراجع المالكية الأساسية في الشمال الأفريقي.

3 – ظهور الدويلات المستقلة:

لم يعرف التاريخ الإسلامي دولة شيعية غير دولة الفاطميين التي نشأت بتونس وساندتها قبائل أمازيغية ككتامة وصنهاجة في منطقة القبائل الجزائرية ومكناسة في المغرب الأقصى.وكما كان الأمر بالنسبة لاعتناق بعض الأمازيغ مذهب الخوارج، كان الدافع في اعتناق بعضهم الآخر المذهب الشيعي سياسيا محضا ويتلخص في الرغبة في الحفاظ على استقلاليتهم تجاه مركز الخلافة والتهرب من وطأة جبايتها عليهم.

وقد دفعت هذه القلاقل الخلافة الفاطمية إلى نقل مركزها إلى المشرق وتم ذلك بعد الاستيلاء على مصر وبناء مدينة القاهرة (969). وكان لتحول عاصمة الفاطميين إلى القاهرة آثار كبيرة، فمن جهة استعاد الشمال الأفريقي استقلاليته تحت إمرة بني زيري الذين كانوا يدينون بولاء اسمي لا غير للفاطميين. ومن جهة أخرى فتح رحيلهم الباب لعودة المالكية إلى ربوع المنطقة.

4- آراء المنصفين من المؤرخين والمفكرين غير المسلمين:

يقول (توماس آرنولد):"لم نسمع عن أية محاولة مُدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام .. أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي من قِبل المسلمين"

(آرنولد، 1965، ص99)

وعندما أقدم الرافضة الباطنيون العبديون (الذين تسموا زورا بالفاطميين في مصر) على إجبار المسلمين على التشيع والرفض (أي سب أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان) فلم يقتصر إجبارهم على المسلمين السنة فقط ولكن، وصل إلى إجبار النصارى أنفسهم على الدخول في الإسلام على التشيع والرفض.

وفي ذلك يقول الدكتور "أيه إس ترتون" وهذا ما حصل بالفعل زمن الحاكم بأمر الله الفاطمي الشيعي الرافضي الذي أقل ما يوصف به هو الخبل والجنون ..! وكان من خبله : أن أكره كثيرين من أهل الذمة (أي اليهود والنصارى)على الإسلام !! فسمح لهم الخليفة الظاهر بالعودة إلى دينهم .. فارتد منهم الكثير بالفعل سنة 418".(ترتون، 1994، ص214)

أما"ويل ديورانت"فيقول:"لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التّسامح:لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحرارا في ممارسة شعائر دينهم .. واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم".

(ديورانت، 1975، ص 131)

ويقول أيضا: "وكان اليهود في بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين .. وأصبحوا يتمتعون بـ كامل الحرية في حياتهم وممارسة شعائر دينهم . وكان

المنارة للاستشارات
ww

المسيحيون أحرارا في الاحتفال بأعيادهم .. وكان الحجاج المسيحيون يأتون أفواجا آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية في فلسطين .. وأصبح المسيحيون (أي في بلاد المسلمين) والذين خرجوا على كنيسة الدولة البيزنطية (أي كنيسة روما) .. والذين كانوا يلقون صورا من الاضطهاد على يد بطاركة القسطنطينية وأورشليم والاسكندرية وإنطاكيا .. أصبح هؤلاء الآن : أحرارا آمنين تحت حكم المسلمين. (ديورانت، 1975، ص 134)

ويقول "غوستاف لوبون":إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وإنهم مع امتشاقهم الحسام (أي السيف) نشرا لدينهم فقد تركوا من لم يرغبوا في هذا الدين أحرارا في التمسك بتعاليمهم الدينية." **(لوبون، 2012، ص 128)**

ويقول المفكر الأسباني"بلاسكواأبانيز" متحدثا عن الفتح الإسلامي للأندلس:"لقد أحسنت اسبانيا استقبال أولئك الرجال الذين قدموا إليها من القارة الإفريقية (يعني المسلمين) وأسلمتهم القرى برمتها بغير مقاومة ولا عداء فما هو إلا أن تقترب كوكبة من فرسان العرب من إحدى القرى حتى تفتح لها الأبواب وتتلقاها بالترحاب فكانت غزواتهم غزوة تمدين وحضارة ولم تكن غزوة فتح وقهر ولم يتخل أبناء تلك الحضارة زمنا عن فضيلة حرية الضمير وهي الدعامة الّتي تقوم عليها كل عظمة حقة للشعوب فقبلوا في المدن التي ملكوها كنائس النصارى و بيع اليهود (جمع بيعة) ولم يخش المسجد من معابد الأديان التي سبقته بل عرف لها حقها واستقر إلى جانبها غير حاسد لها ولا راغب في السيادة عليها. (أبانيز، 2002، ص126)

ويقول المؤرخ "توماس أرنولد":"لقد عامل المسلمون المنتصرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق، أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لخير شاهد على هذا التسامح".

(أرنولد، 1965، ص51)

ويبين لنا (توماس أرنولد) أن: "خراج مصر كان على عهد عثمان اثنا عشر مليون دينار فنقص في عهد معاوية حتى بلغ خمسة ملايين ومثله كان في خراسان فتلاعب بعض الأمراء في شرع الله، طمعاًفي الخراج والجزية فلم يسقطهما بعض الأمراء عمّن أسلم من أهل الذمة (حيث المفترض أن الخراج والجزية عن الكافرين فقط وليس المسلمين) ولهذا السبب قام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بعزل واليه على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي وكتب له كلمته المشهورة، إن الله تعالى بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا."**(أرنولد، 1965، ص93)**

يقول (غوستاف لوبون): "إن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في أديانهم فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغة له، فذلك

المنارة للاستشارات
ww

لما كان يتصف به العرب الغالبون من أنواع العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله، ولِما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى."**(لوبون، 2012، ص127)**

ويقول أيضا:"وما جهله المؤرخون أن حِلم العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحاتهم وفي سهولة اقتناع كثير من الأمم بدينهم ولغتهم، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم." **(لوبون، 2012 ، ص128)**

ويوافقه المؤرخ (ويل ديورانت) فيقول:"وعلى الرغم من منهج التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون أو بسبب هذا المنهج، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين وجميع الزرادشتيين والوثنيين إلا عددا قليلا منهم واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلدان الممتدة من الصين وإندونيسيا إلى مراكش والأندلس واستحوذ على خيالهم وسيطر على أخلاقهم، وصاغ لهم حياتهم، وبعث آمالا تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها."**(ديورانت، 1975، ص 137).**

ويقول (روبرتسون) :"لكنا لا نعلم للإسلام مجمعا دينيا متسلطا ولا رسلا وراء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح. فلم يكره الإسلام أحدا على اعتناقه بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان ذلك نتيجة ما جاء في القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالأسباب

ويقول آدم متز:"ولما كان الشرع الإسلامي خاصا بالمسلمين فقد أفسحت الدولة الإسلامية المجال بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضا، وقد كتبوا كثيرا من كتب القانون في ذلك الوقت، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث وأكثر المنازعات الّتي تخص المسيحيين وحدهم، مما لا شأن للدولة الإسلامية به."

(ميتز ،1948،ص93)

ويقول أيضا:"أما في الأندلس .. فعندنا من مصدر جدير بالثقة أن النصارى:كانوا يفصلون في خصوماتهم بأنفسهم .. وأنهم لم يكونوا يلجؤون للقاضي المسلم إلا في مسائل القتل."

(ميتز ،1948،ص 112)

أما الدكتور(فيليب)يقول عن:"رغبة أهل الذمة في التّحاكم إلى التشريع الإسلامي واستئذانهم للسلطات الدينية في أن تكون مواريثهم حسب ما قرره الإسلام." **(حتي، 1937، ص 212)**

وآخر ما نختم به هو ما تعلق بتشريع الجزية في الإسلام..وتعليق هؤلاء المنصفين عليها. حيث ذكر (وول ديورانت) في (موسوعة الحضارة) مقدار الجزية التي كان يأخذها المسلمون فقال:"إن المبلغ يتراوح بين دينار وأربعة دنانير سنويا.

ويواصل (ويل ديورانت) بيانه للأصناف التي كانت تستثنيهم الجزية فيقول: "وأنه كان يعفى منها الرهبان والنساء والذكور الأقل من سن البلوغ، والأرقاء (أي العبيد) والشيوخ والعجزة والعميان والفقراء وكان الذميون يعفون في نظير هذه الجزية من الخدمة العسكرية ولا تفرض عليهم الزكاة.

المنارة للاستشارات
ww

(ديورانت، 1975، ص 138، 137).

وأخيرا يقول (آدم ميتز): "كان أهل الذمة يدفعون الجزية : كل منهم بحسب قدرته .. وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطني .. فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح... فلا يدفعها ذوو العاهات ولا الرهبان وأهل الصوامع، إلا إذا كان لهم غنى. (ميتز، 1948 ، ص96) .

خاتمة

أن المتتبع لفعل انتشار الإسلام في أمهات الكتب التاريخية وعلى لسان مؤرخين عرب مسلمين، يكتشف في قراءته لما بين الأسطر، أن هناك تغييبا كليا لذواتنا وأفعالنا.

والفرق بين الفتح والغزو بائن وواضح ، فالأول يتم بطرق سلمية مصداقا لقوله تعالى: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (القرآن الكريم: سورة النحل ، الآية 125،ص 281)

والغزو هو تطبيق صريح للجهاد الهجومي(جهاد الطلب)، الّذي لا يتناسب و ترسيخ مبادئ وتعاليم الإسلام، إذ لا يعقل أن تفرض العقيدة فرضا وبالقوة تحت وقع السيف، لأن نشر الإسلام بالقوة يترك ندوبا يصعب برؤها و التآمها بسهولة، فالديانات تنتشر بالأساليب السلمية أفضل، ولعل في تعداد المسلمين حاليا إشارة ضمنية بأن عدد المسلمين الذين أسلموا سلما، أكثر عددا من المسلمين الذين أسلموا تحت وطأ السيف، فما جناه الإسلام سلما أفضل مما جُني بالقوة؟ أن التّجاوزات المرصدة هي التي تجعل من المقاومة شيئا مشروعا، ومن هذه التجاوزات الّتي مُوهت بالإسلام زورا، وما هي بالإسلام ، ورجحت القول بأن الفعل التوسعي باسم الإسلام يغلب عليه الطابع الدموي ، وينحوا نحو طابع الاستبداد وإخضاع الآخر بالقوة وهو ما يرجح فرضية الغزو العربي أكثر من الفتح الإسلامي ، وأن الطابع البدوي للعرب منغرس في وجدانهم لم يقو الإسلام على انتزاعه وبتره.

أن الفتح الإسلامي في شمال إفريقيا برر اختيار الأمازيغ للفكر الخارجي (نسبة للخوارج) فبرزت قوات تعمل بقناعات ثورية تجيز الخروج عن السلطان الجائر الضال، فغدت البلاد مرتعا خصبا للخوارج الصفرية والإباضية، وملاذا آمنا لكل المضطهدين في المشرق، فبرزت بأثرها للوجود الحركة العبيدية، وتأسست دولة الأدارسة العلوية، ودولة الرستميين.من خلال كتابات المؤرخين الفرنسيين.

من المعلوم أن سكان المنطقة بعد الفتح إلى يومنا هذا توحدوا ثقافيا لدرجة كبيرة، ومما يظهر ذلك طرائق العيش المشتركة من احتفالات في الأعراس، والموائد، والدفن، والأزياء...بحيث ينعدم في جل المناطق الاختلاف ، مثلا في المغرب لا يكاد يجزم السامع أن هذا احتفال أمازيغي إن لم يكن يعرف هذا من جهة، أما من الناحية اللغوية فالاندماج يظهر بشكل أقوى.

لقد شهدت منطقة المغرب الأوسط اندماجا ثقافيا، ولغويا هائلا بين الأمازيغ والعرب، حيث تحققت مسألة التأثير والتأثر بشكل كبير، فقد تأثر العرب والعربية، وكذلك الشأن للأمازيغ والأمازيغية، وتمثل ذلك بشكل كبير في اللهجات في هذه المنطقة، فمثلا ظهرت مجموعة من

المنارة للاستشارات
ww

المصطلحات الأمازيغية التي أصبحت تستعمل في اللهجات العربية دون أن تشكل مشكلا معجميا وتؤثر على المعنى المعجمي بتعبير آخر.

و من كل ما أوردناه سابقا أن اللغة العربية في الشمال الأفريقي لم تكن يوما لغة دخيلة، بل كانت لغة الدار لارتباطها بالإسلام الذي استقبله سكان المنطقة بصدر رحب نظرا للمعاناة التي كان يعانيها سكان الشمال الأفريقي، فأضحت اللغة العربية بعد ذلك لغة التخاطب اليومي بين الناس في كثير من المجالات، تعيش جنبا إلى جنب مع الأمازيغية، فلم يمثل ذلك عائقا أمام الناس في سبل العيش، حيث أقامت اللغتان ما أقام الإسلام في هذه البلاد.

وقد لعب الإسلام والعربية بدخولهما إلى هذه المنطقة دورا أساسيا في الدفع بعجلة التطور والتحول الثقافي، والاقتصادي؛ لما كان يمثله هذا الدين من قيم إنسانية جليلة تمثلت في تحرير الإنسان في شمال القارة من عبودية البيزنطيين، والرومان.

ومن خلال ما ذكرناه يتضح جليا أن الفتح الإسلامي جاء نتيجة رغبة ملحة من الناس في المنطقة حيث عانوا الويلات، فكان الإسلام بهم رحيما. وذلك لأسباب اجتماعية و اقتصادية منها:

- أنّ جل الكتاب و المستشرقين الفرنسيين استندوا على كتاب العبر لابن خلدون و بعض المصادر من أمهات الكتب التي اهتمت بالفتح الإسلامي.
- أن الفتح كان من أجل الغنائم التي كان يجنيها المقاتلون من وجهة نظر المستشرقين و المؤرخين الفرنسيين.
- كان للفتح الإسلامي تأثير على البنية الاجتماعية للمغرب الأوسط و ذلك بدخول العنصر العربي بأعداد كبيرة.
- من نتائج الفتح الإسلامي تعريب اللسان الأمازيغي.
- اندماج البربر مع العرب الفاتحين و المشاركة في فتح الأندلس.

قائمة المراجع:

1. القرآن الكريم: سورة النحل، الآية125
2. أبانيزبلاسكوا (2002). ظلال الكنيسة. الرباط: دار المستقبل للنشر و التوزيع.
3. ابن الأثير الجزري و الشيباني، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم (1987).الكامل في التاريخ. تح: أبو الفداء عبد الله القاضي .ج2،ط1، بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية.
4. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (2004) . العبر.ط1.ج 6 . بيروت: دار الملايين للنشر.
5. ابن عبد الحليم، ابن صالح(1954). نص جديد عن فتح العرب للمغرب. تحقيق ليفي بروفنسال. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد،م2. ع 1،2

المنارة للاستشارات
ww

6. ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (1983). البيان المغرِب في اختصار أخبار ملوك الأندلُس والمغرب. تح ومر. ج. س. كولان، إ. ليڤيبروفنسال. ج2،ط3.بيروت ، لُبنان: دار الثقافة.
7. أبو خليل، شوقي (1998). التسامح في الإسلام (المبدأ و التطبيق). ط2. دمشق. سوريا: دار الفكر.
8. الأتابكي، يوسفبنتغري بردى (2011). النجومالزاهرة...،ج 5. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. مصر: دار الكتب.
9. أرنولد، توماس(1965). الدعوة إلى الإسلام. ط2. مصر: مكتبة النهضة المصرية.
10. إميل فيليكسغوتييه (1989). ماضي شمال إفريقيا. تونس: مؤسسةتاوالت الثقافية.
11. الامين، عبد الله (1997). الاستشراق في السيرة النبوية. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الاسلامي.
12. برهييه، إميل (1983). تاريخ الفلسفة. تر: جورج طرابيشي. ج3. بيروت: دار الطليعة.
13. بروفنسال، ليفي(1990). تر محمود عبد العزيز سالم و محمود صلاح الدين حلمي، مر لطفي عبد البديع، مؤسسة شباب الجامعة.
14. بروكلمان، كارل(1965) . تاريخ الشعوب الإسلامية. ط4. بيروت: دار العلم للملايين.
15. بل، ألفريد(1996) .الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم. تر عبد الرحمان بدوي ط1.بيروت،لبنان: دار الغرب الإسلامي.
16. البلاذريّ ، أحمد بن يحي بن جابر بن داود(1988).فتوح البلدان. ج1. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
17. بن ابراهيم، الطيب (2009). الاستشراق الفرنسي و تعدد مهامه (خاصة في الجزائر). الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى.
18. بن نبي، مالك (1969).إنتاج المستشرقين و أثره في الفكر الإسلامي الحديث. ط.1الجزائر: دار الرشاد للطباعة و النشر و التوزيع .
19. ترتون، أيه. إس (1994). أهل الذمة في الإسلام. ترجمة حسن حبش. ط2. القاهرة: مكتبة الاسرة.
20. جابرييلي، فرانشيسكو (1987). الإسلام في عالم البحر المتوسط، ضمن "تراث الإسلام" بإشراف: شاخت وبوزوروث، تر محمد زهور السمهوري وآخرون، سلسلة عالم المعرفة (11). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب.
21. الجهيني، مانع بن حماد (1420ه). الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة. ط3.ج 2 :الرياض الندوة العالمية للنشر و التوزيع.
22. جوليان، شارل أندري (1978).تاريخ افريقيا الشمالية. تعريب: محمد مزالي و البشير بن سلامة. ج 2. تونس: الحركة الوطنية للنشروالتوزيع.
23. جومبريتش، إ. ه. (2013). مختصر تاريخ العالم. ترجمة ابتهال الخطيب .سلسلة عالم المعرفة .400 الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

المنارة للاستشارات
ww

24. الحاج، ساسي سالم (1991).الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية. ط1. مالطا: مركز دراسات العالم الإسلامي.
25. الحاج، ساسي سالم (2002).نقد الخطاب الإستشراقي .. الظاهرة الاستشراقيه وأثرها في الدراسات الإسلامية ج1. بيروت: دار المدار الإسلامي.
26. حبنكة، عبد الرحمان (2008). أجنحة المكر الثلاثة و خوافيها التبشير – الاستشراق – الاستعمار دراسة و تحليل و توجيه. ط8. دمشق: دار القلم.
27. حتي، فيليب(1937). تاريخ العرب.بيروت: شركة ماكميلان للنشر.
28. حوراني، ألبرت (1997). تاريخ الشعوب العربية. ترجمة. أسعد صقر. ط1 .دمشق: دار طلاس.
29. الخربطولي، علي حسني (1988).المستشرقون و التاريخ الإسلامي. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.
30. ديورانت، ول وايريل(1975). قصة الحضارة. بيروت:المنظمة العربية للتربية والثقافة.
31. الذهبي، ابو عبد الله شمس الدين (2004).سيرأعلامالنبلاء.ج15. لبنان: بيت الأفكار الدولية.
32. رسل،برتراند(2010). تاريخ الفلسفة الغربية. ترجمة. زكي نجيب محمود. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
33. روبرتسون، وليم (2006). إتحاف أهل الزمان في تاريخ الإمبراطور شارلكان. تر: محمد حسن علي. ج2.ط3.بيروت: دار المستقبل للنشر.
34. ريسلر، جاك (1993).الحضارة العربية. تح. خليل أحمد خليل. بيروت: دار عويدات.
35. زغلول، عبد الحميد سعد(1993). تاريخ المغرب العربي: ليبيا وتونس والجزائر والمغرب من الفتح العربي حتى قيام دول الأغالبة والرستميينوالأدارسة .القاهرة:دار المعارف.
36. زقزوق، محمود حمدي(1997).الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. القاهرة: دار المعارف.
37. الزيادي، محمد فتح الله (2002).الاستشراق أهدافه ووسائله .ط 2 . دمشق: دار قتيبة.
38. سعيد، إدوارد (1980). الاستشراق"المعرفة، السلطة، الإنشاء". ترجمة كمال أبو ديب. بيروت: مؤسسة الأبحاث العلمية.
39. سمايلوفيتش، أحمد (1998). فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر. القاهرة: دار الفكر العربي.
40. سورديل، دومينيك(2003).الإسلام: العقيدة السياسة الحضارة. تر: سليم قندلفت. ط2. دمشق: دار حوران.
41. السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر(2013).تاريخ الخلفاء، قطر: مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
42. العروي، عبد الله (1977). مجمل تاريخ المغرب. ج2. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر.

المنارة للاستشارات
ww

43. العقيقي، نجيب(1964).المستشرقون(موسوعة في تراث العرب. مع تراجم المستشرقينو دراساتهم عنه منذ ألف عام و حتى اليوم)، ط3 ج 1. القاهرة : دار المعارف.
44. غوردو، عبد العزيز (2011). الفتح الاسلامي لبلاد المغرب" جدلية التمدين والسلطة". ط2. الكويت: دار ناشري للنشر الالكتروني.
45. فوك، يوهان(2001). تاريخ حركة الاستشراق (الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين) (13 و 17) م. ط2 . ترجمة: عمر لطفي العال، بيروت: دار المدار الإسلامي.
46. الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب مجد الدين(2005). القاموس المحيط. بيروت: مؤسسة الرسالة.
47. كولي، القس (1986). البحث عن الدين الحقيقي. بيروت: دار العلم للملايين.
48. لوبون، غوستاف(2012).حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر. مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
49. المالكي، أبو بكر(1983). رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم. ج1. تح، بشير البكوش. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
50. مغلي، محمد البشير (2002). مناهج البحث لدى المستشرقين وعلماء الغرب. ط1.الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
51. المقري، الفيومي احمد بن محمد بن علي (1977). المصباح المنير. ط2. القاهرة: دار المعارف.
52. المقريزي، أحمد بن علي (2007). إغاثةالأمةبكشفالغمة. ط1،ترجمةأكرمحلميفرحات. مصر: عيناللدراساتوالبحوث.
53. مونتجمري، وات (1998) في تاريخ إسبانيا الإسلامية. تر: محمد رضا المصري. ط2. بيروت: شركة المطبوعات.
54. ميتز، آدم (1948). الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري أو عصر النهضة في الإسلام. تر محمد عبد الهادي أبو ريدة.ج2،ط5. مصر: دار الكتاب العربي.
55. النملة، علي (1993).الاستشراق في الأدبيات العربية (عرض للنظرات وحصر وراقي للمكتوب). الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث الدراسات الإسلامية.
56. هاليت، بوفيل روين (1988). تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير. ترجمة أبو لقمة و محمد عزيز. بنغازي: منشورات جامعة قاريونس.
57. اليعقوبي، أبو العباس(1860). تاريخ اليعقوبي. تحقيق: عبدُ الأمير مُهنَّا، ج2،ط1،بيروت:مؤسسة الأعلميللمطبوعات.
58. Claudel Maurice (1900). Les premières invasions arabes dans l'Afrique du nord21 – 78 / 641-697,Ed.Leroux.Paris.

المنارة للاستشارات
ww

59. Devaux Charles (1859). Les Kebailes Du Djerdjera "etudes nouvelles sur les pays vulgairement appelés la Grande Kabylie", Challamel, Paris.
60. DiehlCharles(1900).L'Afrique byzantine. Paris: E. Leroux.
61. E.F.Gautier: Les siècles obscurs du Maghreb
62. G H Bousquet (1957). Les Berbères ; Que sais-je, presse universitaire de France, Paris.
63. GabrielCamps, comment la berbérie est devenue le maghreb arabe, revue de l'occident musulman et de la méditerranée,n35,
64. Gastineau Benjamin (1961).Les femmes et les moeurs de l'Algérie,CollectionHatezel, Paris.
65. H Terrasse (1947). Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du protectorat français, éd Atlantides, Casablanca.
66. Holt .P. M. (1952). " The Origin of Islam Studies." In AL- Kulliya. (Khartoum) No.1.
67. IlahianeHsain(2006). Historical Dictionary of the Berbers (Imazighen).
68. J Poncet (1961).Prosponte et decadenceIfrikienne, t 9-10.
69. J. Desanges(1990). les berbères, Histoire générale de l'Afrique , *v.II* ,(UNESCO).
70. Marcais Georges (1946).La Béribérie musulmane et l'orient au moyen âge, aubier,ed Montaigne, Paris.
71. Maurice Frédérique (1952).la religion dans le monde , Cambridge Ed, Paris.
72. Mercier Ernest(1875) . Histoire de l' établissement des arabes dans l'Afrique septentrionale, Constantine.
73. Y LaCoste : Ibn Khaldoun(1965). Naissance de l'histoire du tiers –monde, MASPERO ,Paris.

المنارة للاستشارات
ww